الأستاذة: أنيسة بن جاب الله

المحاضرة الأولى: النقد العربي القديم: مفهومه وتطوره وجغرافيته في المشرق والمغرب

تمهيد

يمثل النقد الأدبي أحد المكونات الأساسية للحياة الأدبية؛ إذ يرتبط بالإبداع من حيث القراءة والفهم والتحليل والتقويم، ولا يقتصر دوره على إصدار الأحكام بشأن النصوص، وإنما يتجاوز ذلك إلى الكشف عن خصائصها الفنية والجمالية، وتحديد العناصر التي تمنحها قيمتها الأدبية. وقد عرف العرب النقد منذ العصر الجاهلي في صورة أحكام ذوقية وانطباعية ارتبطت بالمجالس والأسواق الأدبية، ثم تطور بتطور الحياة الثقافية، وانتقل تدريجيًا من الممارسة الشفوية إلى التدوين والتأليف، وصولًا إلى ظهور قضايا ومفاهيم ومناهج نقدية أكثر تنظيمًا.

وقد أسهمت التحولات السياسية والاجتماعية والثقافية في توجيه مسار النقد العربي القديم، كما أسهم انتشار الثقافة العربية والإسلامية في ظهور مراكز أدبية ونقدية خارج المشرق، ولا سيما في المغرب والأندلس، حيث لم يقتصر النشاط النقدي على تلقي التراث المشرقي، بل اتجه إلى استيعابه وتطويره وإنتاج تصورات نقدية تعكس خصوصية التجربة الأدبية في تلك الأقاليم.

أولًا: مفهوم النقد

1. النقد لغةً

يرتبط مفهوم النقد في اللغة بالفعل «نَقَدَ»، ويُستعمل للدلالة على الفحص والتمييز والكشف عن حقيقة الشيء. ومن استعمالاته نقد الدراهم، أي اختبارها وتمييز الصحيح منها من الزائف، والكشف عما يشوبها من نقص أو عيب. ومن هذا المعنى المادي انتقلت دلالة النقد إلى المجال الأدبي، فأصبح يدل على فحص الكلام وتمييز جيده من رديئه، والكشف عن مواطن القوة والضعف فيه.

ويكشف الأصل اللغوي للمصطلح عن طبيعة العملية النقدية القائمة على التمييز والاختبار، وعدم الاكتفاء بالمظهر الخارجي للنص، بل النفاذ إلى خصائصه ومكوناته للحكم على قيمته.

2. النقد اصطلاحًا

يقصد بالنقد الأدبي في معناه الاصطلاحي عملية فكرية تقوم على قراءة النص الأدبي وتحليله ووصف خصائصه، ثم إصدار حكم معلل على قيمته الفنية والجمالية والفكرية. وقد ارتبط النقد العربي القديم في بداياته بتمييز جيد الشعر من رديئه، وتخليص الجيد من الضعيف، غير أن ممارسته تطورت مع الزمن لتشمل دراسة الأساليب والمعاني والصور وطرائق التأليف، والبحث في أسباب الجودة والرداءة.

وعليه، فإن النقد لا يعني مجرد إبداء الإعجاب أو النفور من نص أدبي، وإنما يقوم على إدراك عناصره وتحليلها، وموازنتها بمعايير فنية ولغوية، وصولًا إلى حكم يستند إلى شواهد ومسوغات واضحة.

ثانيًا: سمات الناقد الأدبي

لا تتوقف قيمة النقد على طبيعة النصوص التي يتناولها فحسب، بل ترتبط أيضًا بكفاءة الناقد وقدرته على إدراك الخصائص الفنية وإصدار أحكام موضوعية. وقد أشار مصطفى عبد الرحمن إبراهيم في كتابه في النقد الأدبي القديم عند العرب إلى مجموعة من الشروط التي ينبغي توافرها في الناقد الأدبي، تتمثل في الذوق والثقافة والتمرس بالنقد وضمير الناقد الأدبي.

1. الذوق الأدبي

يمثل الذوق أساسًا من أسس الممارسة النقدية؛ لأنه يمكّن الناقد من إدراك القيمة الجمالية للنص، والتمييز بين مستويات التعبير، واستشعار مواطن الجمال والضعف في الألفاظ والمعاني والصور. غير أن الذوق النقدي لا ينبغي أن يظل مجرد استجابة انفعالية أو ميل شخصي، بل يحتاج إلى التهذيب والتدريب حتى يتحول إلى قدرة واعية على التمييز والتقويم.

2. الثقافة

تقتضي الممارسة النقدية امتلاك الناقد رصيدًا معرفيًا واسعًا، يشمل اللغة والأدب وتاريخهما، والإلمام بالتراث النقدي والبلاغي، ومعرفة السياقات الثقافية والتاريخية التي نشأت فيها النصوص. فالثقافة تساعد الناقد على تجاوز القراءة السطحية، وتمنحه الأدوات اللازمة لفهم النص وتفسير خصائصه ومقارنته بغيره.

3. التمرس بالنقد والخبرة والممارسة

لا تتكون الخبرة النقدية بالمعرفة النظرية وحدها، وإنما تنمو من خلال الممارسة المستمرة لقراءة النصوص وتحليلها والموازنة بينها. فالتمرس يتيح للناقد اكتساب القدرة على ملاحظة الفروق الأسلوبية والفنية، وإدراك طرائق بناء النصوص، والتمييز بين مستويات الإبداع، كما يساعده على تطوير أدواته وتدقيق أحكامه.

4. ضمير الناقد الأدبي

يقوم ضمير الناقد على النزاهة والإنصاف والتجرد من الأهواء والأحكام المسبقة. فالناقد مطالب بأن يجعل النص أساسًا لحكمه، وأن يبتعد عن الاعتبارات الشخصية والعلاقات الخاصة، وألا يتأثر بالمواقف التي قد تحجبه عن إدراك القيمة الحقيقية للعمل الأدبي. وبذلك يصبح الضمير ضمانة لأمانة الممارسة النقدية وموضوعيتها.

ومن خلال هذه الشروط يتضح أن الذوق يمنح الناقد القدرة على إدراك الجمال، والثقافة توفر له المعرفة، والممارسة تكسبه الخبرة، في حين يضمن الضمير النقدي نزاهة الحكم وعدالته.

ثالثًا: وظيفة النقد وأهميته

تتمثل الوظيفة الأساسية للنقد في قراءة النص الأدبي والكشف عن خصائصه وتقويم قيمته، فهو لا يقف عند تحديد مواطن الجودة والضعف، وإنما يسعى إلى تفسيرها وبيان العوامل التي أسهمت في تشكيلها. ومن ثم، تتعدد وظائفه بين التحليل والتفسير والموازنة والتقويم.

وتتجلى أهمية النقد في كونه وسيلة لفهم الإبداع الأدبي وإدراك أبعاده الفنية والفكرية، كما يسهم في توجيه الذائقة الأدبية، والتمييز بين مستويات الإنتاج الإبداعي، وحفظ التراث الأدبي من خلال تصنيفه ودراسته وتقويمه. كذلك يتيح النقد إمكانية تطوير التجربة الأدبية، من خلال الكشف عن طرائق التعبير ومظاهر التجديد، ومناقشة العلاقة بين الموروث والابتكار.

ولا تنفصل هذه الوظائف عن طبيعة العلاقة بين الإبداع والنقد؛ فالإبداع يقدم النص بوصفه تجربة فنية، بينما يتولى النقد قراءته وتحليل مكوناته والكشف عن قيمته. ومن هنا، لا يمثل النقد نشاطًا لاحقًا على الإبداع فحسب، بل يشكل مجالًا معرفيًا يساهم في فهم الظاهرة الأدبية وتاريخها وتطورها.

رابعًا: تطور النقد العربي القديم في المشرق والمغرب

لم يتشكل النقد العربي القديم في صورته المنهجية دفعة واحدة، وإنما مرّ بمراحل متعاقبة ارتبطت بتطور الحياة الأدبية والثقافية، وانتقال النقد من الأحكام الذوقية الشفوية إلى التدوين والتأليف، ثم إلى بناء المفاهيم والقضايا النقدية. وقد اختلف مسار هذا التطور بين المشرق والمغرب تبعًا لاختلاف الظروف الثقافية ومراكز النشاط الأدبي.

أولًا: تطور النقد العربي القديم في المشرق

1. العصر الجاهلي

اتسم النقد في هذه المرحلة بالطابع الفطري والذوقي، إذ استند إلى السليقة اللغوية والقدرة على تمييز جودة الشعر من ضعفه. وظهرت أحكامه في الأسواق والمجالس الأدبية، من خلال المفاضلة بين الشعراء والموازنة بين قصائدهم، مع التركيز على جودة اللفظ والمعنى وقوة التصوير. وقد مثلت هذه الممارسة صورة أولية للنقد، لم تكن تستند إلى قواعد نظرية محددة، وإنما إلى الذوق والخبرة بالشعر.

2. صدر الإسلام (القرن الأول الهجري)

تأثر النقد في هذه المرحلة بالتحولات الدينية والاجتماعية التي أحدثها الإسلام، فأصبحت الأحكام النقدية تراعي، إلى جانب القيمة الفنية، المضامين الأخلاقية والدينية ومدى انسجام الشعر مع القيم الإسلامية. ومع ذلك، ظل النقد محافظًا إلى حد كبير على طابعه الشفوي والذوقي، واستمرت الموازنة بين الشعراء وتقويم أشعارهم في ضوء المعايير اللغوية والفنية.

3. العصر الأموي (132-41هـ)

شهد النقد في العصر الأموي تطورًا ملحوظًا بفعل ازدهار الحياة الشعرية، ولا سيما شعر النقائض بين جرير والفرزدق والأخطل، وما صاحبه من مفاضلات وموازنات بين الشعراء، واستعانة بالرواة وأهل المعرفة بالشعر في تقويم النصوص وإصدار الأحكام بشأنها. كما أسهم التنافس السياسي والقبلي في تنشيط الحركة الأدبية، وتوسيع مجال النقد المرتبط بالمفاضلة بين الشعراء وبيان خصائص أساليبهم.

وعلى الرغم من استمرار الطابع الشفوي والذوقي للممارسة النقدية، فقد شهدت أواخر العصر الأموي بوادر حركة التدوين، من خلال الاهتمام بجمع الشعر وروايته وحفظ الأخبار

والأشعار، وهو ما مهّد لانتقال الثقافة الأدبية من مرحلة التداول الشفوي إلى مرحلة الجمع والتصنيف والتأليف التي ستشهد ازدهارًا واضحًا في العصر العباسي.

4.العصر العباسي (656-132هـ)

يمثل العصر العباسي مرحلة مفصلية في تاريخ النقد العربي القديم، إذ شهد ازدهارًا واسعًا للحركة النقدية، وانتقالها من الأحكام الذوقية والملاحظات المتفرقة إلى التأليف والتصنيف وبناء القضايا والمفاهيم النقدية. وقد ارتبط هذا التطور بازدهار الحياة العلمية والثقافية، واتساع حركة الترجمة، ونشاط مجالس العلم والأدب، وظهور مراكز ثقافية كبرى، فضلًا عن تطور علوم اللغة والبلاغة والفلسفة.

وقد بدأت الحركة النقدية تتخذ طابعًا أكثر تنظيمًا، فظهرت مؤلفات تناولت الشعر والشعراء، ودرست قضايا الطبع والصنعة، واللفظ والمعنى، والقديم والمحدث، والموازنة والمفاضلة، كما اتجه بعض النقاد إلى البحث عن معايير فنية يمكن الاستناد إليها في تقويم النصوص الأدبية.

ومن أبرز المؤلفات التي جسدت هذا التطور كتاب طبقات فحول الشعراء لابن سلام الجمحي، وكتاب الشعر والشعراء لابن قتيبة، وكتاب البديع لابن المعتز، وكتاب نقد الشعر لقدامة بن جعفر. وقد أسهمت هذه المصنفات في ترسيخ الكتابة النقدية وتوسيع موضوعاتها، والانتقال بها من تسجيل الأحكام إلى تحليل الظواهر الأدبية وتعليل الخصائص الفنية.

وتواصل هذا التطور خلال القرنين الثالث والرابع الهجريين، حيث اتجه النقد إلى مزيد من التعمق في دراسة الأساليب والصور الشعرية وطرائق النظم والتأليف، وبرزت مؤلفات جمعت بين النقد والبلاغة، من بينها كتاب الصناعتين لأبي هلال العسكري، الذي تناول خصائص الشعر والنثر ووسائل التعبير ووجوه الجودة الفنية.

وهكذا، لم يعد النقد في العصر العباسي مجرد ممارسة ذوقية مرتبطة بالمجالس الأدبية، بل أصبح مجالًا معرفيًا قائمًا على التأليف والتحليل والموازنة والتعليل، وأسهم في تأسيس جانب مهم من التراث النقدي والبلاغي العربي.

ثانيًا: تطور النقد العربي القديم في المغرب والأندلس

ارتبط تطور النقد في المغرب والأندلس بانتقال الثقافة العربية إلى هذه الأقاليم، وبنشوء مراكز أدبية وعلمية أسهمت في استيعاب التراث النقدي المشرقي وتطويره. وقد تدرج هذا النشاط من مرحلة التلقي والتأثر إلى مرحلة التأليف وإنتاج تصورات نقدية تعكس خصوصية التجربة الأدبية المحلية.

1.القرن الثالث الهجري

بدأت تتضح ملامح النشاط الأدبي والنقدي في المغرب والأندلس، في ظل انتشار الثقافة العربية وازدياد الصلة بالمراكز الثقافية المشرقية. واتسمت هذه المرحلة بالتأثر بالموروث الأدبي والنقدي الوافد، مع بدايات تشكل بيئة أدبية محلية أسهمت في تهيئة الظروف لظهور نشاط نقدي أكثر وضوحًا في القرون اللاحقة.

.2القرن الرابع الهجري

شهدت الحياة الأدبية في الأندلس نموًا ملحوظًا، وبدأت تتشكل ملامح شخصية أدبية ونقدية متميزة، نتيجة التفاعل بين النماذج المشرقية والتجربة الشعرية الأندلسية. وبرزت العناية بالمفاضلة بين الشعراء وتقويم الإنتاج الأدبي المحلي، إلى جانب الاهتمام بالخصوصية الفنية للشعر الأندلسي.

.3القرن الخامس الهجري

عرف النقد في المغرب مرحلة أكثر وضوحًا من حيث التأليف والتقعيد، ويبرز في هذا السياق ابن رشيق القيرواني من خلال كتابه العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده، الذي جمع قضايا الشعر ونقده وبلاغته، وعالج شروط جودة القول الشعري وخصائصه الفنية. وتكمن أهمية هذا الكتاب في جمعه بين المادة النقدية الموروثة والممارسة التطبيقية، بما جعله من أبرز المصنفات النقدية في الغرب الإسلامي.

.4القرن السادس الهجري

اتسع الاهتمام بالقضايا البلاغية والفنية، وتعمقت العناية بتحليل النصوص وطرائق بنائها، وما يتصل بالأسلوب والصورة والتأليف، في سياق استمرار التفاعل مع التراث النقدي المشرقي. كما أصبحت الممارسة النقدية أكثر ارتباطًا بالبحث في الخصائص الفنية للنصوص ووسائل التأثير الجمالي فيها.

.5القرن السابع الهجري

بلغ التنظير النقدي في المغرب والأندلس مستوى متقدمًا مع حازم القرطاجني في كتابه منهاج البلغاء وسراج الأدباء، الذي تناول قضايا الشعر من منظور يجمع بين الموروث النقدي والبلاغي العربي وبعض التصورات الفلسفية. وقد اهتم ببناء القصيدة والتخييل وطرائق التأليف، كما بحث في أثر الخطاب الشعري في المتلقي، وهو ما يعكس انتقال النقد إلى مستوى أكثر تركيبًا في تفسير العملية الإبداعية وشروط تأثيرها.

خامسًا: المشرق والمغرب بين التأثر والتفاعل

لا يمكن النظر إلى تطور النقد في المشرق والمغرب باعتبارهما مسارين منفصلين، فقد قامت بينهما صلات ثقافية وعلمية أسهمت في انتقال المؤلفات والأفكار والمفاهيم النقدية. وكان المشرق سباقًا إلى التدوين والتأليف النقدي المنظم، بحكم مراكزه العلمية والأدبية المبكرة، في حين شهد المغرب والأندلس تطورًا تدريجيًا للنشاط النقدي، انتهى إلى ظهور مؤلفات متميزة لم تكتف بنقل الموروث المشرقي، وإنما عملت على استيعابه وتطويره في ضوء التجربة الأدبية المحلية.

ويظهر هذا التفاعل بوضوح في أعمال ابن رشيق القيرواني وحازم القرطاجني، إذ تتجلى فيها المعرفة بالتراث النقدي العربي، إلى جانب محاولات بناء تصورات أكثر اتساعًا في قضايا الشعر والبلاغة والتخييل والتأثير. ومن ثم، فإن تاريخ النقد العربي القديم هو حصيلة تفاعل بين مراكز ثقافية متعددة، أسهمت جميعها في تشكيله وإغناء قضاياه.

خاتمة

يتضح من خلال تتبع مفهوم النقد العربي القديم وتطوره أن الممارسة النقدية بدأت استجابة ذوقية وفطرية للحاجة إلى التمييز بين مستويات القول الشعري، ثم تطورت بتأثير التحولات الدينية والاجتماعية والثقافية، وشهدت أواخر العصر الأموي بدايات التدوين، قبل أن تتبلور حركة التأليف النقدي بصورة أكثر انتظامًا في العصر العباسي. وقد أسهمت المؤلفات النقدية في القرنين الثالث والرابع الهجريين في الانتقال بالنقد من الأحكام الجزئية إلى التحليل والتعليل وبناء المفاهيم.

أما في المغرب والأندلس، فقد تطور النشاط النقدي في سياق التفاعل مع التراث المشرقي، وصولًا إلى ظهور تجارب نقدية متميزة جسدتها مؤلفات ابن رشيق القيرواني وحازم القرطاجني. وهكذا، لم يكن النقد العربي القديم مجرد أحكام متفرقة على الشعراء والنصوص، بل تحول تدريجيًا إلى معرفة أدبية لها موضوعاتها وقضاياها وأدواتها، وأسهمت في حفظ التراث الأدبي وفهمه وتحديد قيمته الفنية والجمالية.

المحاضرة الثانية: بيبليوغرافيا المصنفات النقدية في المشرق والمغرب

تمهيد

يمثل التراث النقدي العربي رصيدًا معرفيًا متنوعًا، تشكل عبر مراحل تاريخية متعاقبة، وأسهم في بنائه عدد كبير من العلماء والنقاد والأدباء الذين انشغلوا بدراسة الشعر والنثر، وتحديد مقاييس الجودة، والكشف عن خصائص التعبير الأدبي. وقد تجسدت هذه الجهود في مصنفات متعددة اختلفت من حيث موضوعاتها ومناهجها وغاياتها، لكنها اشتركت في بناء تصور عربي لطبيعة الإبداع الأدبي وطرائق تقويمه.

وتقتضي دراسة هذا التراث التعرف على أهم مصنفاته، وتحديد سياقات ظهورها، والوقوف على مضامينها وقيمتها النقدية؛ وهو ما تتيحه البيبليوغرافيا بوصفها مدخلًا أساسيًا لتنظيم المعرفة بالمؤلفات والتعريف بها.

أولًا: مفهوم البيبليوغرافيا والمصنفات النقدية

1. مفهوم البيبليوغرافيا

البيبليوغرافيا (Bibliographie) مصطلح ذو أصل يوناني، يتكون من كلمتين تدلان على الكتابة والكتاب، ويُقصد به في الاستعمال العلمي علمُ وصف الكتب وتسجيل بياناتها وتنظيمها والتعريف بها، وفق معايير محددة تساعد على حصر الإنتاج الفكري وتصنيفه وتيسير الوصول إليه.

ولا تقتصر البيبليوغرافيا على ذكر عناوين الكتب وأسماء مؤلفيها، بل قد تتجاوز ذلك إلى تقديم معلومات عن موضوعاتها ومضامينها، وتاريخ تأليفها أو نشرها، وطبعاتها، وقيمتها العلمية. وبذلك تؤدي وظيفة توثيقية ومعرفية، إذ تساعد الباحث على التعرف على مصادر تخصصه، وتتبع تطور التأليف في مجال معين، وتحديد موقع كل مصنف ضمن سياقه التاريخي والعلمي.

2. مفهوم المصنفات النقدية

يقصد بالمصنفات النقدية مجموع المؤلفات التي تناولت الأدب بالدراسة والتحليل والتقويم، سواء اتخذت الشعر أو النثر موضوعًا لها، أم عالجت قضايا تتصل بالإبداع الأدبي ومقاييس جودته وخصائصه الفنية.

وقد اتخذت هذه المصنفات أشكالًا متعددة؛ فمنها ما اهتم بجمع الشعراء وتصنيفهم، ومنها ما تناول قضايا البلاغة والبيان، ومنها ما وضع معايير للحكم على الشعر، أو اعتمد الموازنة بين الشعراء، أو بحث في طبيعة الصورة والأسلوب والعلاقة بين اللفظ والمعنى.

ومن ثم، فإن المصنف النقدي لا يُشترط أن يحمل عنوانًا يتضمن لفظ النقد، فقد تكون بعض كتب الأدب والبلاغة والتراجم والأخبار ذات قيمة نقدية واضحة، لما تتضمنه من آراء وأحكام وملاحظات تتصل بالإبداع الأدبي.

3.أهمية البيبليوغرافيا في دراسة التراث النقدي

تكتسب البيبليوغرافيا أهمية خاصة في دراسة النقد العربي القديم؛ لأنها تساعد على:

- حصر أبرز المصنفات النقدية والتعريف بأصحابها.
- تتبع تطور التأليف النقدي عبر العصور.
- الكشف عن القضايا التي شغلت النقاد واختلفت مناهجهم في معالجتها.
- التعرف على إسهامات المشرق والمغرب في بناء التراث النقدي العربي.
- تيسير الرجوع إلى المصادر الأصلية وتحديد قيمتها العلمية والنقدية.

وانطلاقًا من ذلك، سنعرض مجموعة مختارة من المصنفات النقدية في المشرق والمغرب، مع مراعاة الترتيب الزمني لوفيات أصحابها، والتعريف بمضامينها وأهميتها في تطور التفكير النقدي.

ثانيًا: المصنفات النقدية في المشرق

عرف المشرق العربي نشاطًا نقديًا واسعًا، خاصة في العصر العباسي، حيث تطورت حركة التأليف والتصنيف، وظهرت مصنفات تناولت الشعر والشعراء والبلاغة والبيان، وسعت إلى وضع أسس أكثر وضوحًا للحكم على النصوص الأدبية. ومن أبرز هذه المصنفات:

1.طبقات فحول الشعراء –ابن سلام الجمحي (ت 232هـ)

يُعدّ كتاب طبقات فحول الشعراء لأبي عبد الله محمد بن سلام الجمحي من أقدم المصنفات النقدية التي وصلت إلينا، وقد خصصه مؤلفه لتصنيف الشعراء وفق مراتبهم ومكانتهم الفنية، معتمدًا على تقسيمهم إلى طبقات تضم كل واحدة منها عددًا من الشعراء المتقاربين في المستوى والمنزلة.

ولا يقتصر الكتاب على جمع أسماء الشعراء وأخبارهم، بل يتضمن أحكامًا نقدية تتصل بجودة الشعر وقوة الشاعر، كما يعالج قضية الانتحال وصحة الرواية، ويناقش مدى الثقة في الأشعار المنسوبة إلى أصحابها.

وتبرز قيمته النقدية في اعتماده منهجًا تاريخيًا وتصنيفيًا يقوم على المقارنة بين الشعراء، وفي إسهامه في ترسيخ ضرورة التحقق من الرواية قبل إصدار الحكم النقدي.

2.البيان والتبيين –الجاحظ (ت 255هـ)

يمثل كتاب البيان والتبيين لأبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ واحدًا من أهم مصادر التراث الأدبي والبلاغي في العصر العباسي. وهو مصنف موسوعي جمع فيه الجاحظ مادة واسعة

تتصل بالبيان والفصاحة والخطابة والبلاغة، إلى جانب الأخبار والنوادر والأشعار والخطب والأمثال.

وتتجلى قيمته النقدية في اهتمامه بخصائص التعبير، والعلاقة بين اللفظ والمعنى، ومراعاة مقتضى الحال، وأثر الخطاب في المتلقي. كما يتضمن ملاحظات دقيقة حول جودة الكلام ومراتب الفصاحة والبيان، ويعتمد في معالجة هذه القضايا على الاستشهاد والمقارنة والملاحظة.

وعلى الرغم من أن الكتاب ليس مصنفًا نقديًا متخصصًا بالمعنى الدقيق، فإنه يمثل مصدرًا أساسيًا لفهم التصورات النقدية والبلاغية في التراث العربي.

3.الشعر والشعراء –ابن قتيبة الدينوري (ت 276هـ)

يُعدّ كتاب الشعر والشعراء لأبي محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة من أبرز المصادر التي جمعت بين الترجمة للشعراء والتعريف بشعرهم وإصدار الأحكام النقدية عليه. وقد عرض فيه المؤلف أخبار عدد كبير من الشعراء، واختار نماذج من أشعارهم، وقدم ملاحظات تتعلق بجودة القول الشعري وخصائصه الفنية.

ومن أبرز القضايا التي عالجها موقفه من القديم والمحدث، إذ رفض اتخاذ الأسبقية الزمنية معيارًا وحيدًا للحكم على جودة الشعر، مؤكدًا أن التفاضل ينبغي أن يقوم على قيمة النص وما يتوافر فيه من خصائص فنية.

وتكمن أهمية الكتاب في محاولته تحقيق قدر من الموضوعية والإنصاف في الحكم على الشعراء، وفي جمعه بين الترجمة والاستشهاد والتحليل النقدي.

4.البديع –ابن المعتز (ت 296هـ)

يُعدّ كتاب البديع لعبد الله بن المعتز من المصنفات المؤسسة في دراسة المحسنات والأساليب البلاغية في الشعر العربي. وقد ألّفه سنة 274هـ، وسعى فيه إلى بيان أن الفنون التي عُرفت لاحقًا باسم البديع ليست ظواهر مستحدثة، بل لها شواهد في القرآن الكريم والحديث الشريف وأشعار العرب وخطبهم.

عرض ابن المعتز خمسة فنون رئيسة، هي: الاستعارة، والتجنيس، والمطابقة، ورد أعجاز الكلام على صدوره، والمذهب الكلامي، ثم تناول محاسن أخرى في الكلام والشعر، مستشهدًا بنماذج من التراث الأدبي.

وتتجلى القيمة النقدية للكتاب في محاولته تصنيف الظواهر البلاغية وتحديد خصائصها، وربط الأحكام النقدية بالشواهد النصية. كما يمثل خطوة مهمة في انتقال النقد من الملاحظات المتفرقة إلى دراسة أكثر تنظيمًا للفنون والأساليب التي تسهم في تشكيل جمالية النص الأدبي.

5.عيار الشعر –ابن طباطبا العلوي (ت 322هـ)

يُعدّ كتاب عيار الشعر لمحمد بن أحمد بن طباطبا العلوي من المصنفات المهمة التي تناولت طبيعة الشعر وشروط جودته، وسعت إلى تحديد المعايير التي يمكن اعتمادها في تقويم النصوص الشعرية.

يعالج الكتاب قضايا تتصل ببناء القصيدة، وتناسب أجزائها، والانسجام بين ألفاظها ومعانيها، ومراعاة الشاعر للموضوع الذي يعالجه. كما يهتم بالعلاقة بين الطبع والصنعة، ويرى أن جودة الشعر لا تتحقق بمجرد امتلاك الموهبة، وإنما تحتاج إلى معرفة باللغة، وإحكام للصياغة، ومراجعة للنص حتى تستقيم أجزاؤه.

وتبرز قيمته النقدية في محاولته وضع تصور متكامل لعملية الإبداع الشعري، وتحديد مجموعة من المعايير الفنية التي تضبط بناء القصيدة وتحقق وحدتها وانسجامها. كما يتميز بمنهجه الذي يجمع بين التنظير والتطبيق، من خلال تقديم الأحكام النقدية وإسنادها إلى الشواهد الشعرية.

.6نقد الشعر –قدامة بن جعفر (ت 337هـ)

يمثل كتاب نقد الشعر لقدامة بن جعفر مرحلة متقدمة في مسار النقد العربي القديم، إذ حاول صاحبه وضع تصور نظري يقوم على تحديد مفهوم الشعر وتقسيم عناصره، ثم بيان الشروط التي تتحقق بها جودته.

وقد حدد قدامة عناصر الشعر الأساسية في أربعة أركان، هي: اللفظ، والمعنى، والوزن، والقافية، ودرس ما يتصل بكل عنصر من محاسن وعيوب، محاولًا إخضاع الحكم النقدي لمجموعة من القواعد والمعايير المحددة.

وتكمن أهمية الكتاب في نزوعه إلى التقعيد والتنظيم، واعتماده منهجًا تحليليًا يتأثر بالتفكير المنطقي، الأمر الذي أسهم في انتقال النقد من الملاحظات الذوقية إلى محاولة بناء نظرية تضبط عناصر العمل الشعري وتحدد مقاييس الحكم عليه.

.7الموازنة بين الطائيين –الآمدي (ت 370هـ)

يُعدّ كتاب الموازنة بين الطائيين لأبي القاسم الحسن بن بشر الآمدي من أبرز نماذج النقد التطبيقي في التراث العربي، وقد خصصه للموازنة بين أبي تمام والبحتري، من خلال دراسة شعرهما ومقارنة أساليبهما ومعانيهما وصورهما الفنية.

وتناول الآمدي قضية الطبع والصنعة، وما يميز تجربة كل شاعر من خصائص فنية، كما ناقش قضايا الابتكار والسرقات الشعرية، وجودة المعاني، وسلامة الأسلوب، ومناسبة اللفظ للمعنى. ولم يكتف بإصدار أحكام عامة، بل استند إلى شواهد شعرية يعرضها للمقارنة والتحليل.

وتبرز القيمة النقدية للكتاب في اعتماده الموازنة منهجًا للكشف عن الفروق الفنية بين الشعراء، وفي سعيه إلى تحقيق الإنصاف والابتعاد عن الأحكام القائمة على التعصب أو الإعجاب المسبق.

.8الوساطة بين المتنبي وخصومه –القاضي الجرجاني (ت 392هـ)

ألّف القاضي علي بن عبد العزيز الجرجاني كتاب الوساطة بين المتنبي وخصومه في سياق الجدل النقدي الذي أثارته تجربة أبي الطيب المتنبي، وما صاحبها من مواقف متباينة بين أنصاره ومنتقديه.

وقد سعى المؤلف إلى دراسة شعر المتنبي، ومناقشة ما وُجه إليه من اتهامات، خاصة ما يتعلق بالسرقات الشعرية والأخطاء اللغوية والمعنوية، كما تناول قضايا الابتكار وجودة التعبير وخصائص الأسلوب.

وتتمثل أهمية الكتاب في اعتماده منهجًا حجاجيًا يقوم على عرض آراء الخصوم ومناقشتها، ثم الاستدلال بالشواهد الشعرية للوصول إلى أحكام أكثر إنصافًا. كما تكشف معالجته عن وعي نقدي يميز بين التشابه في المعاني والاقتباس والسرقة، ولا يكتفي بإطلاق الأحكام دون تحليل.

.9دلائل الإعجاز –عبد القاهر الجرجاني (ت 471هـ)

يُعدّ كتاب دلائل الإعجاز لعبد القاهر الجرجاني من أهم المصنفات المؤسسة للنظرية البلاغية والنقدية في التراث العربي، وقد خصصه مؤلفه لدراسة أسرار النظم وبيان وجوه الإعجاز في القرآن الكريم.

وتقوم الفكرة المركزية في الكتاب على أن جمال الكلام وبلاغته لا يتحققان من خلال الألفاظ منفردة، ولا من خلال المعاني بمعزل عن صيغ التعبير، وإنما ينشآن من طريقة تنظيم الكلمات وربط بعضها ببعض وفق العلاقات النحوية والدلالية. وقد عُرف هذا التصور باسم نظرية النظم.

وتكمن القيمة النقدية للكتاب في تجاوزه النظرة الجزئية إلى الألفاظ والمحسنات، واتجاهه إلى دراسة النص بوصفه بناءً متكاملًا تتفاعل فيه العلاقات اللغوية والدلالية. وبذلك أسهم الجرجاني في تأسيس تصور عميق للعلاقة بين اللغة والمعنى، وأثر في تطور الدراسات البلاغية والنقدية اللاحقة .

ثالثًا: المصنفات النقدية في المغرب

شهد المغرب العربي، ولا سيما القيروان والأندلس، حركة أدبية ونقدية نشطة، أسهمت في إثراء التراث النقدي العربي. وقد استفاد النقاد المغاربة من الجهود التي ظهرت في المشرق، لكنهم لم يكتفوا بنقلها، بل عملوا على تطوير قضاياها وتوسيع مجالاتها، بما يعكس خصوصية البيئة الأدبية والثقافية في المنطقة.

ومن أبرز المصنفات التي تمثل هذا النشاط النقدي:

.1الممتع في علم الشعر وعمله –عبد الكريم النهشلي (ت 405هـ)

يُعدّ عبد الكريم بن إبراهيم النهشلي من أعلام الحركة الأدبية والنقدية في إفريقية خلال القرن الخامس الهجري، وقد عُرف باهتمامه بالشعر وأخباره وقضاياه، وبمعرفته باللغة والرواية والأدب. ومن أبرز آثاره كتاب الممتع في علم الشعر وعمله، الذي يمثل أحد المصادر المهمة في دراسة الشعر والنقد في المغرب.

يتناول الكتاب قضايا الشعر من حيث طبيعته وصناعته، ويجمع بين الأخبار والروايات والشواهد الشعرية، ويعرض لمسائل تتصل بالإبداع الشعري ومعرفة أساليبه وأصوله. وتبرز قيمته النقدية في اهتمامه بالجانب النظري والتطبيقي للشعر، وفي ما يقدمه من مادة أدبية ونقدية تعكس طبيعة التفكير النقدي في إفريقية خلال تلك المرحلة.

وتتأكد أهمية الكتاب من خلال صلته بالمصنفات النقدية اللاحقة، ولا سيما كتاب العمدة لابن رشيق، الذي أفاد من جهود النهشلي ونقل عنه في مواضع متعددة.

.2العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده –ابن رشيق القيرواني (ت 456هـ)

يُعدّ كتاب العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده لأبي علي الحسن بن رشيق القيرواني من أهم المصنفات النقدية التي ظهرت في المغرب خلال القرن الخامس الهجري، بل من أبرز المؤلفات التي جمعت قضايا الشعر ونقده في التراث العربي القديم.

جاء الكتاب في صورة موسوعة أدبية ونقدية واسعة، تناول فيها ابن رشيق فضل الشعر ومكانته، وصفات الشاعر وآدابه، وأغراض الشعر وفنونه، وخصائص اللفظ والمعنى، ومحسنات الكلام وعيوبه. كما أفرد مساحة مهمة لقضايا السرقات الشعرية، وبيّن أنواعها ومراتبها، وتناول مسائل تتصل بالطبع والصنعة، والقديم والمحدث، وشروط جودة القول الشعري.

وتكمن القيمة النقدية للكتاب في جمعه بين المعرفة النظرية والتطبيق العملي، واعتماده على رصيد واسع من الشواهد والأخبار والآراء النقدية السابقة، مع تقديم رؤية خاصة للمؤلف في تقويم الشعر وتحليل عناصره. كما يتميز بمحاولته الجمع بين مختلف جوانب الصناعة الشعرية، مما جعله مرجعًا أساسيًا في دراسة النقد العربي القديم، ومظهرًا بارزًا من مظاهر نضج الحركة النقدية في القيروان.

.3منهاج البلغاء وسراج الأدباء –حازم القرطاجني (ت 684هـ)

يُعدّ كتاب منهاج البلغاء وسراج الأدباء لحازم القرطاجني من أهم المؤلفات النقدية والبلاغية التي ظهرت في المغرب خلال القرن السابع الهجري، ويمثل مرحلة متقدمة في تطور التفكير النقدي العربي، لما يتضمنه من تصورات نظرية حول الشعر وطبيعة الإبداع ووسائل التأثير في المتلقي.

عالج حازم في كتابه قضايا تتصل بحقيقة الشعر ووظيفته، وبناء القصيدة، وطرائق التأليف والتخييل والمحاكاة، كما اهتم بالعلاقة بين المعاني والألفاظ، وبكيفية تنظيم القول لتحقيق التأثير الجمالي والنفسي. واستفاد في بناء تصوره من التراث النقدي والبلاغي العربي، كما تأثر ببعض المفاهيم الفلسفية، ولا سيما ما يتصل بالشعر والمحاكاة والتخييل.

وتبرز القيمة النقدية للكتاب في محاولته بناء تصور نظري شامل للعملية الشعرية، لا يقتصر على وصف المحسنات أو إصدار الأحكام الجزئية، بل يتناول عناصر الإبداع ووظائفه وطرائق تأثيره. كما يكشف عن انتقال النقد العربي إلى مستوى أكثر تركيبًا في معالجة النص الأدبي، من خلال الجمع بين البلاغة والفلسفة والتحليل الفني.

رابعًا: ملامح التطور النقدي في المشرق والمغرب

تكشف المصنفات السابقة عن تنوع واضح في مسارات النقد العربي القديم، سواء من حيث الموضوعات التي عالجتها أم من حيث المناهج التي اعتمدتها. ففي المشرق، بدأ الاهتمام بجمع الشعر وتصنيف الشعراء والتحقق من الرواية، كما يظهر في كتاب طبقات فحول الشعراء، ثم اتسعت دائرة البحث لتشمل قضايا البيان والبلاغة وخصائص التعبير، كما نجد عند الجاحظ.

ومع تطور التأليف النقدي، ظهرت محاولات أكثر تنظيمًا لتحديد معايير جودة الشعر، ودراسة عناصره، والموازنة بين الشعراء، كما يتجلى في مؤلفات ابن طباطبا وقدامة والآمدي والقاضي الجرجاني. أما عند عبد القاهر الجرجاني، فقد بلغ التفكير النقدي والبلاغي مرحلة أكثر عمقًا من خلال نظرية النظم، التي جعلت من العلاقات النحوية والدلالية أساسًا في فهم جمالية النص وبلاغته.

وفي المغرب، يظهر تطور النقد من خلال عناية النهشلي بقضايا الشعر وصناعته، ثم اتساع المعالجة النقدية عند ابن رشيق في العمدة، الذي جمع مختلف مسائل الشعر وآدابه ونقده في مصنف موسوعي. أما حازم القرطاجني فقد قدم تصورًا نظريًا أكثر تركيبًا، جمع فيه بين قضايا الشعر والبلاغة والتخييل والمحاكاة، مستفيدًا من التراث النقدي والفلسفي.

وعلى الرغم من اختلاف البيئات الثقافية وتنوع التجارب النقدية، فإن المصنفات المشرقية والمغربية تتقاطع في اهتمامها بتحديد مقاييس الجودة، والكشف عن أسرار التعبير، ودراسة العلاقة بين اللفظ والمعنى، والبحث في طبيعة الإبداع الشعري ووظائفه.

خاتمة

يتضح من خلال هذه النماذج أن النقد العربي القديم لم يتشكل في صورة اتجاه واحد أو منهج ثابت، وإنما تطور عبر مراحل متعددة، انتقل فيها من الملاحظة الذوقية والتقويم المباشر إلى التصنيف والتقعيد والتحليل النظري والتطبيقي. وقد أسهمت المصنفات المشرقية في وضع الأسس الأولى لهذا التطور، من خلال جمع المادة الأدبية، ودراسة الشعراء، وتحديد معايير الجودة، وتحليل الظواهر البلاغية. كما أسهم النقاد في المغرب في إثراء هذا التراث، من خلال تطوير قضايا النقد وتوسيع مجالاته، وصولًا إلى التصورات النظرية التي قدمها حازم القرطاجني.

وبذلك تمثل هذه المصنفات حلقات متكاملة في تاريخ النقد العربي القديم، وتكشف عن ثراء التجربة النقدية العربية، وعن تنوع مناهجها وموضوعاتها، وعن التفاعل المستمر بين المشرق والمغرب في بناء المعرفة الأدبية والنقدية.

المحاضرة الثالثة: النقد الانطباعي: مفهومه ومجالاته

تمهيد

ارتبط ظهور النقد الأدبي في العصر الجاهلي بالحياة الشعرية التي عرفتها القبائل العربية، فقد احتل الشعر مكانة بارزة في المجتمع، وأصبح وسيلة للتعبير عن القيم والمواقف، ومجالًا للتنافس والمفاخرة بين الشعراء. وقد أتاح هذا الحضور للشعر أن يتحول إلى موضوع للتذوق والموازنة وإصدار الأحكام، فظهرت ملاحظات نقدية متفرقة في الأسواق والمجالس الأدبية، وفي مجالس الملوك والأمراء الذين كانوا يستقبلون الشعراء ويستمعون إلى أشعارهم.

ولم يكن النقد في هذه المرحلة قائمًا على قواعد نظرية أو مناهج تحليلية محددة، وإنما استند أساسًا إلى الذوق الفطري والسليقة اللغوية والاستجابة المباشرة لما يحدثه الشعر في نفس المتلقي. لذلك اتسمت الأحكام النقدية بطابع انطباعي واضح، إذ كان الناقد يصدر حكمه انطلاقًا مما يثيره النص من إعجاب أو استحسان أو نفور، وقد يعلل ملاحظته أحيانًا، لكنها تظل مرتبطة بإحساسه الخاص وتجربته في التذوق.

أولاً: مفهوم الانطباع

الانطباع هو الأثر الذي يتركه موضوع أو عمل فني في نفس المتلقي، وما ينشأ عنه من إحساس أو استجابة وجدانية وذوقية، قد تتجلى في الإعجاب والاستحسان أو النفور

والاستهجان. وهو بذلك يمثل استجابة أولية للعمل الأدبي، تتشكل بفعل ما يثيره من مشاعر وأحاسيس، قبل الانتقال إلى التحليل المنظم أو التفسير النقدي.

ثانياً: مفهوم النقد الانطباعي

النقد الانطباعي، أو النقد الذاتي التأثري، هو اتجاه نقدي يقوم على الاستجابة الوجدانية والذوقية للعمل الأدبي، وينطلق من الأثر الذي يتركه النص في نفس المتلقي، فيصدر أحكامه وفق ما يثيره فيه من إعجاب أو نفور أو استحسان أو استهجان. ويعتمد هذا النقد على الذوق والسليقة والخبرة الأدبية، دون الاحتكام إلى قواعد نقدية مدونة أو منهج تحليلي محدد.

وقد اتخذ النقد الانطباعي في العصر الجاهلي صورة ملاحظات عفوية ارتبطت بتذوق الشعر وتقويمه، فكان الناقد يلتفت إلى لفظة أو معنى أو صورة، أو يصدر حكمًا على شاعر أو قصيدة، بحسب ما يتكون لديه من انطباع تجاهها. ومن ثم، فإن القيمة النقدية لهذه الأحكام لا تكمن في كونها تحليلات منهجية مكتملة، وإنما في كونها تعبر عن بدايات الوعي الجمالي بالشعر، وعن قدرة المتلقي على التمييز بين مستويات التعبير والتصوير والصياغة.

ثالثاً: ميادين النشاط النقدي في العصر الجاهلي

ارتبط النشاط النقدي في العصر الجاهلي بالأماكن التي كان يجتمع فيها الشعراء والرواة وأصحاب الذوق الأدبي، وفي مقدمتها الأسواق الأدبية، والمجالس العامة، ومجالس الملوك والأمراء. وقد مثّل سوق عكاظ فضاءً بارزًا للتنافس الشعري، حيث كان الشعراء يتناشدون أشعارهم ويتبادلون الآراء والملاحظات، الأمر الذي أتاح ظهور أحكام تتصل بجودة الشعر وقوة التعبير وحسن التصوير.

ومن المجالس التي ارتبطت بالنشاط النقدي مجلس النابغة الذبياني، الذي كان الشعراء يعرضون عليه قصائدهم، فيستمع إليها ويصدر أحكامًا تتعلق بجودتها وأسلوبها. كما كان لقريش دور في تقويم الشعر وانتقاء الألفاظ، إذ رُوي أن العرب كانت تعرض أشعارها عليها، فما استحسنته قبلته، وما استقبحته ردّته. وتكشف هذه الممارسات عن حضور الذوق الجماعي والفردي في توجيه الأحكام الأدبية، وعن ارتباط النقد في تلك المرحلة بالمشافهة والمجالس والتنافس الشعري.

رابعاً: أنواع النقد الانطباعي ونماذج منه

لم يكن النقد الانطباعي في العصر الجاهلي محصورًا في جانب واحد من جوانب الشعر، بل شمل اللغة والمعنى والصورة والمبالغة، كما امتد إلى الحكم على الشعراء والمفاضلة بين القصائد. وتكشف النماذج المروية عن هذا النقد عن أحكام نشأت في الغالب من استجابة مباشرة للنص، حيث كان الناقد يلتقط موضعًا أثار انتباهه، فيستحسنه أو يستنكره، ويعبّر عن موقفه منه بعبارة موجزة أو تشبيه دال.

1. النقد اللغوي

يتجه هذا النوع إلى تقويم الألفاظ والتراكيب ومدى ملاءمتها للمعنى الذي يراد التعبير عنه، وهو من أبرز مظاهر النقد الانطباعي في العصر الجاهلي؛ لأن العربي كان يمتلك حساسية لغوية نابعة من فصاحته ومعرفته بدلالات الألفاظ واستعمالاتها.

ومن النماذج التي تروى في هذا السياق أن طرفة بن العبد سمع المسيب بن علس ينشد:

وقد أتناسى الهمَّ عندَ احتضاره بناجٍ عليه الصيعرية مكدّم

فقال له طرفة: "استنوق الجمل"

تكشف هذه العبارة الموجزة عن انطباع لغوي مباشر تجاه استعمال لفظة «الصيعرية»، التي ترتبط بوصف الناقة، في سياق يتحدث عن الجمل. ولم يلجأ طرفة إلى شرح مطول أو تحليل لغوي مفصل، بل عبّر عن استهجانه لهذا الاستعمال بعبارة ساخرة تختصر موضع الخلل في نظره. وتبرز انطباعية هذا الحكم في صدوره عن إحساس فطري بعدم ملاءمة اللفظة للموصوف، اعتمادًا على السليقة اللغوية أكثر من اعتماده على قاعدة نقدية مصاغة.

2.النقد المعنوي

يقوم النقد المعنوي على تقويم الأفكار والدلالات التي يتضمنها الشعر، ومدى ملاءمتها للغرض الذي قيلت فيه. وقد كان الناقد الجاهلي يتوقف عند بعض المعاني التي يراها ضعيفة أو غير مناسبة للمقام، فيعبّر عن موقفه منها انطلاقًا من تصوره لما ينبغي أن يكون عليه التعبير الشعري.

ومن ذلك ما رُوي عن النابغة الذبياني حين أنشد حسان بن ثابت قوله:

لنا الجفناتُ الغُرُّ يَلْمَعْنَ بالضحى وأَسْيافُنا يَقطُرْنَ من نَجْدَةٍ دَمَا

فأخذ عليه النابغة استعمال لفظة "الجفنات" التي تدل على القلة وأيضا لفظة "أسيافنا"، في مقام الفخر الذي يقتضي الكثرة، كما رأى أن وصف اللمعان بالضحى أقل قوة من اللمعان في الظلام، حيث يكون ظهور البريق أشد وضوحًا. وتكشف هذه الملاحظة عن انطباع النابغة تجاه الصياغة التي اختارها حسان، إذ لم ينطلق من تصور نظري مجرد، وإنما من إحساسه بأن الألفاظ والصور لم تبلغ الدرجة التي يقتضيها غرض الفخر. وهكذا يتداخل في هذا النموذج تقويم اللفظ والمعنى، لأن الحكم على التعبير يرتبط بمدى قدرته على أداء الدلالة المطلوبة في السياق.

3.نقد الصورة الشعرية

اهتم النقد الجاهلي بالصورة الشعرية من حيث قدرتها على نقل المشهد وإثارة الإعجاب، ولا سيما في الأغراض التي تعتمد على الوصف، مثل وصف الخيل والحركة والقتال. وكان الحكم على الصورة يتشكل غالبًا من خلال الانطباع الذي تتركه في نفس السامع، ومدى إحساسه بوضوحها وقوتها وقدرتها على تمثيل الواقع.

ومن أشهر النماذج المتداولة في هذا المجال قصة احتكام امرئ القيس وعلقمة بن عبدة إلى أم جندب، زوج امرئ القيس، في وصف الخيل. فقد طلبت منهما أن يصف كل واحد منهما

فرسه في الموضوع نفسه، وعلى روي وقافية واحدة، ثم عرضت القصيدتين للموازنة. وقد صوّر امرؤ القيس فرسه وهو يستحثه بالصوت والضرب، بينما صوّر علقمة فرسه قادرًا على إدراك طريدته دون زجر أو ضرب، فمال حكم أم جندب إلى صورة علقمة.

وتتجلى انطباعية هذا الحكم في اعتماده على ما استحسنته أم جندب من صورة، وما أحدثته فيها من إحساس بالتفوق والقدرة. فهي لم تستند إلى معايير فنية مكتوبة، وإنما قارنت بين الصورتين من خلال تذوقها لهما، ورأت أن تصوير الفرس الذي يدرك طريدته دون حاجة إلى الحث والضرب أكثر قوة وإقناعًا. وبذلك يمثل هذا النموذج بداية للموازنة بين الصور الشعرية، انطلاقًا من الاستجابة الجمالية المباشرة.

4.نقد الغلو والمبالغة

يتصل هذا النوع بمدى تجاوز الشاعر حدود المعقول والمألوف في التعبير، إذ قد يلجأ إلى المبالغة من أجل تقوية المعنى وإثارة التأثير، غير أن الإفراط فيها قد يجعل الصورة بعيدة عن التصديق. وقد عبّر النقد الجاهلي عن موقفه من هذا الأسلوب من خلال استهجان بعض الصور التي تجاوزت حدود الإدراك المعتاد.

ومن ذلك قول مهلهل بن ربيعة:

فلَوْلَا الريحُ أُسمعَ من بحُجْرٍ صَلِيلَ البِيضِ تُقْرَعُ بالذُّكورِ

تقوم الصورة على المبالغة في وصف شدة المعركة، حتى يصبح صوت السيوف وهي تتصادم مسموعًا من مسافة بعيدة جدًا. وتكشف هذه الصورة عن تجاوز حدود المألوف في تقدير قوة الصوت وبعد مداه. ويظهر الطابع الانطباعي في الحكم على هذا الغلو من خلال الاستجابة المباشرة لما تثيره الصورة من استغراب أو استهجان، بسبب ابتعادها عن التصور الواقعي. فالناقد هنا لا يقدم تحليلًا نظريًا للمبالغة، وإنما يصدر موقفه من مدى قبول الصورة وإمكان تصديقها.

5.الحكم على الشاعر من خلال الطابع العام لشعره

لم يكن النقد الجاهلي يتناول الأبيات والقصائد وحدها، بل امتد أحيانًا إلى الحكم على الشاعر من خلال الروح العامة التي تميز شعره. ومن ذلك ما رُوي عن اجتماع عدد من شعراء تميم، وهم عمرو بن الأهتم والزبرقان بن بدر والمخبل السعدي وعبدة بن الطبيب، وتفاخرهم بالشعر، فطلبوا إلى ربيعة بن حذافة الأسدي أن يحكم بينهم، فقال: «**أما عمرو فشعره برود يمانية تطوى وتنشر، وأما الزبرقان فكأنه أتى جزورًا قد نُحرت، فأخذ من أطايبها وخلطه بغيره، وأما المخبل فشعره شهب من الله يلقيها على من يشاء من عباده، وأما عبدة فشعره كمزادة أحكم خرزها، فليس يقطر منها شيء.**"

وتكشف هذه الأوصاف عن محاولة لتحديد الطابع الفني العام لكل شاعر؛ إذ شبّه شعر عمرو بالثياب النفيسة، وشعر الزبرقان بما يجمع بين الاختيار والمزج، وشعر المخبل بالشهب لما فيه من قوة وتميز، أما شعر عبدة فشبّهه بالمزادة المحكمة للدلالة على متانته وإحكام صياغته. وتبرز انطباعية هذا الحكم في اعتماده على الصور التشبيهية التي عبّر بها الناقد عن إحساسه

بأسلوب كل شاعر، دون أن يستند إلى تحليل تفصيلي لنماذج شعرية أو إلى معايير نقدية محددة. فهو حكم ذوقي شامل، ينتقل من الانطباع تجاه الشعر إلى تكوين صورة عامة عن صاحبه.

6.المفاضلة بين القصائد

تُعد المفاضلة بين القصائد من الممارسات النقدية التي تكشف عن حضور التذوق والموازنة في العصر الجاهلي، إذ كان السامع يقارن بين النصوص ويصدر حكمًا يفضل به قصيدة على أخرى، وفق ما تتركه فيه من أثر جمالي وقوة في التعبير.

ومن النماذج التي تروى في هذا السياق أن عمرو بن الحارث الغساني استمع إلى قصيدة علقمة بن عبدة التي مطلعها:

طَحَا بك قلبٌ في الحِسانِ طَروبُ بُعيدَ الشبابِ عَصرَ حانَ مَشيبُ

ثم استمع إلى قصيدة النابغة الذبياني:

كِلِينِي لهِمَّ ٍيا أُميمةَ ناصبِ وليلٍ أُقاسيهِ بطيء الكواكبِ

كما استمع إلى قصيدة حسان بن ثابت:

أسألتَ رسمَ الدار أم لم تَسأَلِ بينَ الجوابي فالبُضَيْعِ فَحَوْملِ

ففضّله عليهما، وأطلق على قصيدته وصف «البتراء» لأنها بترت غيرها من القصائد.

ويكشف هذا النموذج عن حكم نقدي قائم على المفاضلة بين النصوص، غير أن أساسه يظل مرتبطًا بالانطباع الذي تركته القصائد في نفس السامع. فإطلاق وصف «البتراء» على قصيدة حسان يعبر عن إعجاب بالغ بها، وعن إحساس بتفوقها على ما سواها، حتى بدت وكأنها تجاوزت القصائد الأخرى وقطعت عليها طريق المنافسة. ومن ثم، فإن هذا الحكم لا يقدم تحليلًا تفصيليًا لعناصر التفوق، وإنما يختصر موقفًا ذوقيًا من خلال وصف بلاغي قوي يكشف عن شدة الاستحسان.

خاتمة

يتضح من خلال هذه النماذج أن النقد في العصر الجاهلي اتخذ طابعًا انطباعيًا في جوهره، فقد انطلق من الذوق الفطري والسليقة اللغوية، وارتبط بالأثر الذي يتركه الشعر في نفس المتلقي. وتنوعت مظاهره بين تقويم الألفاظ والمعاني، والحكم على الصور الشعرية والمبالغة، وتقدير الطابع الفني للشاعر، والمفاضلة بين القصائد.

وعلى الرغم من غياب القواعد النقدية المدونة والمناهج التحليلية المنظمة، فإن هذه الأحكام تكشف عن وعي مبكر بجوانب الجودة والضعف في التعبير الشعري، وعن قدرة المتلقي الجاهلي على التمييز بين الأساليب والصور والمعاني. ومن هنا تبرز أهمية النقد الانطباعي بوصفه مرحلة تأسيسية في نشأة النقد العربي القديم، إذ مثّل الانتقال الأول من مجرد تلقي الشعر وسماعه إلى تذوقه وإصدار الأحكام بشأنه.